

الوطن في المنفى: مجهود درويش وبول تسيلان

أنجليكا نوفييرت

كيف يمكن للتجسيديات الأسطورية . مثل الوطن منظوراً إليه في صورة العروس ، والشهيد في صورة المخلص . أن تلوح في ناظر الشاعر بعد انعتاقه من التطورات السياسية التي جرت منذ العام 1982 ، وبعد أن دخل نهائياً في المنفى ، في «بلد من كلام» كما صنّفه درويش نفسه منذ العام 1986 ، في قصيدته «نساfer كالناس»؟ ما الذي يتبقى من النصوص المضادة . التي كُتبت لكي تتحدّى تراث الآخر . حين يكفّ الآخر عن مواجهة النفس ، لأنه أصبح جزءاً من النفس؟ ودرويش ، الذي يمكن اعتباره «مؤسس مادّة الخطاب» حسب تعبير ميشيل فوكو . أي ذلك الذي يلعب دوراً رئيسياً في إنتاج الخطاب . لم يكتفِ في دواوينه الأخيرة بتأمل التاريخ ، ولكنه أيضاً تأمل تاريخ الخطاب الذي دشّنه هو بنفسه؟ وإذ أعاد النظر في شعر الحبّ المبكر الذي كتبه لفلسطين ، شخّص درويش دوره في صيغة «عاشق من فلسطين» ، فاعتبره دوراً شعرياً انخرط فيه بنوع من نشوة الشباب .

وفي ديوانه «سرير الغريبة» نجد قصيدة بعنوان «قناع لمجنون ليلي»، يقول فيها:

وجدتُ قناعاً، فأعجبني أن
أكون آخري . كنت دون
الثلاثين، أحسب أن حدود
الوجود هي الكلمات . وكنتُ
مريضاً بليلى كأني فتى شَعَّ
في دمه المُلح . إن لم تكن هي
موجودة جسداً، فلها صورة الروح
في كل شيء . تقربني من
مدار الكواكب . تُبعدني عن حياتي
على الأرض . لا هي موّت ولا
هي ليلي . «أنا هو أنتِ
فلا بدّ من عدم أزرق للعناق
النهائي» . عالجني النهر حين
قذفت بنفسي إلى النهر متحرراً . . .

إن اغتراب الشاعر عن الحياة الفعلية، أو فقد العالم Weltverlust، كان يمكن أن يقتاده إلى العدمية الذاتية كما اقتاد بول تسيلان، شاعر المنفى اليهودي الكبير الذي انتحر سنة 1970 بإلقاء نفسه في مياه نهر السين. لكن درويش، من جانبه، يؤوب إلى الحياة:

ثم أرجعني رجل عابر، فسألتُ :
لماذا تعيد إليّ الهواء وتجعل
موتي أطول؟ قال : لتعرف
نفسك أفضل . . من أنت؟

قلت: أنا قيس ليلي، وأنت؟

فقال: أنا زوجها

ومشينا معاً في أزقة غرناطة،

تتذكر أيامنا في الخليج... بلا ألم

تتذكر أيامنا في الخليج البعيد.

أنا قيس ليلي

غريب عن اسمي وعن زمني.

إنه الآن مستعدّ لأداء دور منفيّ آخر: المجنون، شاعر لويس أراغون العجوز في الطبعة الماركسية-السوريالية من الحكاية ذاتها، الذي يهيم على وجهه في شوارع غرناطة الجريحة، المقام الشعري للمنفي العربي، في نهاية القرن الخامس عشر، قبل سقوطها، مغتياً غزلياته المكرّسة لـ 'إلزا' المستقبل (نظير أراغون الموازي لليلى درويش)، التي ليست موجودة بعد، ولكنها ستولد حين تتيح الحرّية والعدل للحبّ أن يترعرع (أنظر أراغون: 'المجنون').

ويتمّ في القصيدة تعليق الزمن، وكذلك خطوط التماس السياسية. والمنافس السابق للمتكلم، أو 'آخره'، أصبح نفسه الثانية alter ego، وهما يستدعيان معاً عديد المنافي: ليس المنفى الفلسطيني القياسي المألوف فحسب، ونفي العرب من الأندلس سنة 1492. والذي كان أيضاً نفياً يهودياً محتوماً. بل كذلك نفي بدر شاكر السيّاب خارج العراق، والذي جعله يصيح على شواطئ الخليج، مستذكراً وطنه.

وإذ يظلّ في إهاب قيس ليلي، فإنّ الصوت المتكلم في القصيدة لم يعد يقتفي أثر المجنون العربي القديم وحده، بل يتابع أيضاً شعراء المنفى المحدثين، غرباً وشرقاً على حدّ سواء:

تسيلان، أراغون، والسيّاب. وإنّ منفاه، كما تشي به إشاراتُه إلى هؤلاء الشعراء، لم يعد مرتبطاً بالإقصاء من الأرض، بل هو تغريب وجودي، حتى أنّ شخصية الشاعر بالمعنى التقليدي توضع محلّ مساءلة. والسطور الأخيرة من القصيدة فريدة في تعبيرها عن زهد كليّ في الإدراك الحديث للنفس بوصفها الذات، وفي انتفاء أي فهم جوهراني أو أحادي للهوية، والاستعاضة عن هذا بالإعراب عن وعي ذاتي لم يعد طامحاً في مكانة الشاعر، بل بالشعر وحده:

أنا

كائن لم يكن . وأنا فكرة للقصيد

ليس لها بلد أو جسد

وليس لها والد أو ولد .

أنا قيس ليلى ، أنا

وأنا . . . لا أحد

لقد اكتملت دائرة منافي الشاعر : درويش ، في بدء تجربته الشعرية ، أعطى الفلسطينيين قصة تكوين Genesis خاصة بهم ، تسرد نفيهم . فيما بعد ، حين احتفى بالفدائي والشهيد ، خلق دراما الخروج Exodus الفلسطيني ، وجسد 'العودة' من المنفى . ومنذ الثمانينات انكبّ على استكشاف المنفى الوجودي ، فأصبح 'الآخر' أو 'الغريب' جزءاً من نفسه .

وفي ديوانه 'سرير الغربية' ، حيث يحيل العنوان إلى الغربية ، تندمج سلسلة تجارب في المنفى المتعدد والمتغاير . وعلى غرار المتصوّف الإسلامي الذي يعتبر أنّ كامل الوجود على الأرض هو 'منفى للروح' ، أو 'غربة' ، يبصر محمود درويش عالمه في صورة الوطن-المنفى ، 'بلد من كلام' ، وعند عربي بلا أرض ، لا يمكن لبلد كهذا أن يقع إلا في رحاب الشعر .⁽¹⁾

ترجمة : صبحي حديدي

(1) الكاتبة أستاذة الدراسات العربية في الجامعة الحرّة ، برلين ، وأستاذة زائرة في عمّان والقاهرة وبيروت . والنصّ جزء من

دراسة بعنوان «محمود درويش : من الفردوس الضائع إلى بلد من كلام» ، بالإنكليزية ، في كتاب :

Mahmoud Darwish: Exile>s Poet, edited by Hala Khamis Nassar and Najat Rahman.

Olive Branch Press, Northampton, Massachusetts, 2008. 377 p.